

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٢٨)

أى : أن إبليس سيزوق الموت أيضاً : لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ..﴾ (٦٨) [الزمر]

وكذلك قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) [الرحمن]

وهكذا لم يفلت إبليس من الموت .

ولقائل أن يسأل : وكيف كلمه الله ؟

ونقول : لم يكلمه الله تشریفاً أو تكريماً ؛ بل غلظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يحكّمهم أن يبلغوا ما شاء لمن شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ لَبِثْتُ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَلْغُوْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣١)

(١) قال ابن عباس : أراد بهذا اليوم - النفخة الأولى ، أى : حين تموت الخلائق . وقبل الوقت المعلوم الذى استأثر الله بطعه . ويجهله إبليس ، فيموت إبليس ثم يبعث . [تفسير القرطبي ٢/ ٢٧٥] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٢٧٠٣

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ .. ﴾ (٣٩) [الحجر]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبب لنفسه الطرد واللعنة ؛ فقد قال :

﴿ بَعَا أَغْوَيْتَنِي .. ﴾ (٣٩) [الحجر]

والحق سبحانه لم يُغوه ؛ بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصى ويعاقب ، فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليس أمر الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٩) [الحجر]

وفى هذا إيضاح أن كل وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفى الأشياء التى تُدمر العافية ، كمن يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يَغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخل يكفيه الضرورات ؛ فهو يأمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمن يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية ؛ إن الاستقامة لا تُكَلَّف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون فى الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرّمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية . تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية لبعض من ألوان ~~الاستقامة~~ .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على

الاستقامة ، ويحاولون أخذهم إلى طريق الانحراف : لأن كل منحرف إنما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدي : ولا يخيب معي مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس في حُمقٍ رَدَّه على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه : أيدخل في معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذي خلقه سبحانه كخليفة ليحمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال :

﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُخْرُونَ .. ﴾ (٣٦)

وهذا يعني أن مجال معركته مع الخلق لا مع الخالق : لذلك قال :

﴿ وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٧)

وكلمة (أجمعين) تفيد الإحاطة لكل الأفراد ، وهذا فرق قدرته بعد أن عرف مقامه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿ إَلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠)

فهؤلاء العباد الذين خلّصتهم لنفسك يا ربّ : فلن أقدر عليهم : لأنك أخذتهم من طريق الغواية : لأنهم أحسنوا الإيمان ، وقد وصلوا

(١) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال اغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم - فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) . (٢) وفي إسناده ابن لهيعة . وانظر مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) .

إلى مرتبة من الإخلاص التعبدى درجة يصعب بها على الشيطان
غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة
الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خلقه مهديين ما استطاع أحد أن
يُضلهم ، ولكن عزة الله ^(١) عن خلقه هي التي أفسحت المجال للإغواء ،
ولذلك نجد إبليس يُقرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لبس فيه ، ولا يقول
لما قد يظنّه إبليس مجاملة منه لله ، فيقول سبحانه في الآية التالية :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ٤١ ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراط المستقيم هو الذى يقود
العباد إلى الطاعة ؛ فليس فى الأمر تفضل من إبليس الذى سبق له أن
حدّد المواقع والاتجاهات التى سيأتى منها لغواية البشر ، حيث قال
الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ^(٢)
وَلَا نَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾

[الأعراف]

(١) عزة الله عن خلقه : أى استغناؤه سبحانه عنهم .

(٢) قال قتادة : « أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار . ومن خلفهم من
أمر الدنيا ، فزبّنها لهم ودعاهم إليها . وعن أيمنهم من قبل حسماتهم بطاعهم عنها . وعن
شمالهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها . أتاك يا ابن آدم من كل
وجه . خير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » . ذكره ابن
كثير فى تفسيره (٢٠٤/٢) .

في ذلك القول حدد إبليس جهات الغواية التي يأتي منها وترك
« الفُوق » و « التُّحَت » ، لذلك نقول : إن العبد إذا استحضر دائماً علوَّ
عِزَّةِ الربوبية ، ودُلَّ العبودية ؛ فالشيطان لا يدخل له أبداً .

وبواصل الحق سبحانه قرله المبلِّغ عنه لنا :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَتَمَنَّوْا لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا إِلَّا مَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٢)

وهكذا أصدر الحق سبحانه حكمه بالأمر بأن يكون لإبليس سلطان على
مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس ألا يتعرض لهم ؛ فسبحانه هو
الذي يَصُونُهُمْ منه : إِلَّا مَنْ ضَلَّ عَنْ هُدًى اللَّهِ سَبْحَانَهُ ، وهم مَنْ
يَسْتَطِيعُ إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن « الغاوين » هي ضد « عبادي » ، وهم الذين
اصطفاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان ؛ لأنهم أخلصوا
وخلصوا نفوسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام
الغاوين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ ^(١) إِلَّا أَنْ دَعَرْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ ^(٢) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ
قَبْلُ . . (٢٢) ﴾

[إبراهيم]

(١) السلطان : الملك والقوة والظهور والحجة ، والبرهان ، [القاموس القويم ١/ ٢٢٢] .

(٢) المصرخ : المبلغ الذي يُلْفِظُ غيره ، والاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة ، والمستصرخ :

المستغيث ، [لسان العرب - مادة : صرخ] .

سورة الحجرات



ومن نعم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكل ذلك في الدنيا ،
ولسوف يُقرّ الشيطان بهذا كله في اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك
سلطاناً يقهرنا به في الدنيا ، بل مجرد إشارة ونزغ ؛ ولا يملك
سلطاناً إقناعاً ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يؤكد أن جزاء الغاوين قاسٍ
اليم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٤٢

ولأن المصير لهؤلاء هر جهنم ؛ فعلى العبد الذكي أن يستحضر
هذا الجزاء وقت الاختيار للفعل ؛ كي لا يرتكب حماقة الفعل الذي
يُزيّنه له الشيطان ، أو تُكبح عليه به نفسه . ولو أن المُسرف على
نفسه استحضر العقوبة لحظة ارتكاب المعصية لما أقدم عليها ، ولكن
المُسرف على نفسه لا يقرن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن
المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هبّ أن إنساناً قد استولت عليه شراسة
الغريزة الجنسية ، وعرف عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له ما يشاء من
رغبات ، وأحضروا له أجمل النساء ؛ وسهلوا له المكان المناسب
للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله لك ، شرط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك .
وأضاءوا له من بعد ذلك قبواً في المنزل ؛ به قرن مشتعل . ويقولون
له : بعد أن تفرّغ من لذتك ستدخل في هذا الفرن المشتعل . ماذا
سيصنع هذا الإنسان ؟

لا بُدَّ أَنَّهُ سَيَرْفُضُ الْإِقْدَامَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تَقُودُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ .

وهكذا نعلم أن مَنْ يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ إِنَّمَا يَسْتَبْطِئُ الْعَقُوبَةَ ، وَالذِّكْرُ حَقًّا هُوَ مَنْ يُصَدِّقُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ : الْمَوْتُ الْقِيَامَةُ ، فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ^(١) . وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى يَمُوتُ .

وَيُبَيِّنُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَرَاتِبَ الْجَحِيمِ ، فَيَقُولُ :

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ^(٢) ﴿١١﴾

وَفِي جَهَنَّمَ يَكُونُ مَوْعِدٌ هَؤُلَاءِ الْغَاوِينَ ، وَمَعَهُمْ إِبْلِيسُ الَّذِي آتَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَصَنَعَ عَلَى غَوَايَةِ الْبَشَرِ ، وَأَلْوَانُ الْعَذَابِ سَتَخْتَلِفُ ، وَلِكُلِّ جَمَاعَةٍ لَهُمْ جَزِيمَةٌ يُقَرَّنُونَ ^(٣) بِهَا مَعًا . فَمَنْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ سَيَكُونُونَ مَعًا ؛ وَمَنْ يَلْعَبُونَ الْمَيْسِرَ يَكُونُونَ مَعًا .

وَلِكُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ جَمَاعَةٌ تَدْخُلُ مِنْهُ رِبَطَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعْصِيَةً مَا ؛ وَجَمْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَاءٌ مَا ، وَتَكُونَتْ مِنْ بَيْنِهِمْ

(١) ذَكَرَهُ الْعَجَلُونِيُّ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ (حَدِيثٌ رَقْمُ ٢٦١٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَمَامُهُ : « أَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ فَإِنَّكُمْ إِنِ ذَكَرْتُمُوهُ فِي قُلُوبِكُمْ كَذَرْتُمْهُ عَلَى رُءُوسِكُمْ » .

(٢) قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَلْ تَدْرُونَ كَيْفَ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ؟ قِيلَ : فِي سَبْعِ أَبْوَابٍ . قَالَ : لَا ، فِي مَكَانٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . زَادَ الثَّعْلَبِيُّ : رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَحْمَرِيِّ . ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٥٣/٥) .

(٣) وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٥٥) [إِبْرَاهِيمَ] أَيْ : مُسَلَّسِينَ فِي الْقَيْدِ وَالْأَغْلَالِ . كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ قَرِينِهِ وَشَبِيهِهِ .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧.٩

صداقات قى الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة ؛ ولذلك فعليهم الاشتراك
فى العقوبة والنكال .

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

﴿الْأَخِلَّاءُ^(١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

وفى الجحيم أماكن تآريهم : فقسّم يذهب إلى اللظى : وآخر إلى
الحُملة ؛ وثالث إلى سَقَر ، ورابع إلى السَّعِير ، وخامس إلى
الهاوية .

وكل جزء له قِسْمٌ مُّعَيَّن به ؛ وفى كل قسم دَرَكَات ، لأن الجنة
درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتى الحق سبحانه بالمقابل : لأن ذَكَرَ المقابل كما نعلم يُعطى
الكافر حَسْرَةً ؛ ويعطى المؤمن بشارَةً بأنه لم يَكُنْ من العاصين ،
ويقول :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾

والمُتَّقَى هو الذى يَصُولُ بين ما يُحِبُّ وما يَكْرَهُ ؛ ويحاول ألا
يُصِيبَ مَنْ يُحِبُّ ما يَكْرَهُ . وتتعدى التقوى إلى متقابلات ، فنجد الحق
سبحانه يقول : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

(١) الخليل : الصديق المخلص ، وجميع أخلاء . وخالَه مَخَالَةً : صادقته مصداقاً نقوية .
[القاموس القويم ٢٠٨/٩]

﴿ فَانْظُرُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ (٢١) [البقرة]

وقلنا من قَبْلُ : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويَهَبُ بصفات الجلال البَلَايا ؛ فهو غَفَّار ، وهو قَهَّار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتَقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبعَ منهجه ؛ فلا ندخل النار التي هي جُحْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٤٥) [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإن كانت المعصية قد غلبت بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدل سيئاتهم حسنات .

ومنْ يدخل الجنة سيّجداً فيها العيون والمقصود بها الأنهار ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ^(١) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. ﴾ (١٥) [محمد]

ولعل هناك عيوناً ومنابع لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

(١) آسن الماء : تغيّرت رائحته . وهو الذي لا يشربه أحد من نكته . [لسان العرب - مادة : اسن] .

﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴾

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة في سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلام الدنيا والاطمئنان فيها مختلف عن سلام الجنة ؛ فسلام الدنيا يعكره خوف افتقار النعمة ، أو أن يفوت الإنسان تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم في الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾

وهكذا يخرج الحق سبحانه من صدورهم أي حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا في المعاصي وهم مُقْتَلَبُونَ بِالْغُلِّ ، بينما هم قد طهرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه في الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مطهرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أي منهم بحسد لغيره .

والغُلُّ كما نعلم هو الحقد الذي يسكن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وجهات نظرهم في الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

(١) الغل = العش والعداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج في تفسير الآية : « حقيقة » والله أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً في علو المرتبة لأن الحسد غل ، وهو أيضاً كبر ، والجنة مُبَرَّاة من ذلك ، نكره ابن منظور في اللسان « مادة : غل » .

فى المعسكر المقابل طلحة^(١) والزبير رضى الله عنهما : وكلامنا مبشّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلبه .

ولحظة أن قامت المعركة جاء وجهه على - كرم الله وجهه - فى وجه الزبير : فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تمرآن على ، سلم النبى وقلت أنت : لا يفارق ابن أبى طالب رَهْؤهُ ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وأنت ظالم له » . فرمى الزبير^(٢) بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على على - كرم الله وجهه - ! فقال عليّ رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولأبيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أن يجمع بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال على : وفيما نزل إذن قوله الحق :

﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلَرٍ ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحقدية فى النفوس يكون عميقاً ، وأن خلعها فى اليوم الآخر يكون خلعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذى عاداه فى الدنيا نظرته إلى مُحسِن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عيب منه .

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى . أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام . وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر . وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٢٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٢٩١] .

(٢) هو : الزبير بن العوام . ابن عمه النبى ﷺ . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى . زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٢٦ هجرية على يد عمرو بن جرموز . [الإصابة ٣/٥ - ٧] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .

سُورَةُ الْحَجَّراتِ

﴿٧٧١٢﴾

ذلك أن المؤمن في الآخرة يذكر مُعْطَيَاتِ الْأَشْيَاء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً : قُرْبَى أَخٍ لَكَ لَمْ تَكُنْهُ أُمُّكَ ، والحق سبحانه هو القائل في موقع آخر :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . . (١٠٢)﴾

[ال عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرمه ولا تحقد عليه ؛ ولكتك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع^(٢) . وقد تكون أخوة طيبة مسئلة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر . ويجتمعكم الحق سبحانه في الآخرة على سُرُرٍ متقابلين .

وسال سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما في الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فضل الحق المطلق يرفع منزلة الأدنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان في الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿يَسْأَلُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ^(٣) إِلَيَّ رَبِّكَ كَذْحًا قَمَلًا لِيَهْدِي^(٤)﴾ [الانشقاق]

(١) شفا الشيء : حرّته وطرّقه . شفا كل شيء : حرّته . واشفى على الشيء : اشرف عليه . [لسان العرب - مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الأخوة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . (٥٩)﴾ [المجادل] فكل مؤمن أخ . وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكدح : هو السعي والحرص والدؤوب في العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكَدَّ في العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس المفرد ١٥٥/٢] .

ولكن الحال في الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿لَا يَعْصِيهِمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ (٤٨)

وحياتك في الآخرة - إن أصلحت عملك وكنت من المؤمنين - تختلف عن حياتك في الدنيا ؛ فانت تعلم أنك في الدنيا تحيا مع اسباب الله الممدودة لك ؛ وتخرب في الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أن يهبك الله ما في الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المفلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل علاه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةُ هُمْ يُوَفِّيُونَ (٤) أَوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

[البقرة]

رشاء الحق سبحانه أن يأتي بلفظ المفلح كصفة للمؤمن في الجنة ، لأن المؤمن قد حرث الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيم منهج الله في الأرض ، ونصب قامته ، ونعلم أن نصب القامة يدل على أن من يعمل قد أصابه التعب ، وذلك في الحياة الدنيا .

أما في الجنة ، فيقول الحق :

﴿لَا يَعْصِيهِمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ (٤٨)

[الحجر]

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والالئ . ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٥٢/٢) .

أَي : لَا يَصِيبُهُمْ فِيهَا نَعَبٌ ، وَلَا يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ
قَدْ ذَالُوا فِيهَا الْخُلُودَ .

وهكذا تَكَلَّمَ سبحانه عن الْفَاقِينَ ، وقد كانوا أَخْلَاءَ فِي الدُّنْيَا
يَمْرَحُونَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي : وَهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُهُمْ عِقَابُ الْجَحِيمِ . وَتَكَلَّمَ
عَنِ الْعِبَادِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ سَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَلَفَتْ رُؤَاؤُهُ
فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَرِبْطْ بَيْنَهُمْ تَأَكُّفٌ أَوْ مَحَبَّةٌ : لَكِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ،
وَيَتَصَافَوْنَ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَيِّ خِلَافٍ قَدْ سَبَقَ فِي الدُّنْيَا .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ :

﴿ نَبِيٍّ عِبَادِي أَيَّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤١)

وَالْخُطَابُ هُنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَالْإِنْبَاءُ هُوَ الْإِخْبَارُ بِأَمْرِ لَهُ
خُطُورَةٌ وَعَظَمَتَةٌ : وَلَا يُقَالُ (نَبِيٌّ) فِي خَيْرٍ بَسِيطٍ . وَسَبَقَ أَنْ
قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ هَذَا النَّبِيِّ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النَّبَا]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ أَيْضًا عَنْ هَذَا النَّبِيِّ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (١٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (١٨) ﴾ [ص]

وَنَفْهَمُ مِنَ الْقَوْلِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ الْإِخْبَارُ بِنَبَأِ الْآخِرَةِ وَمَا سَوْفَ يَحْدُثُ
فِيهَا ، وَهَذَا يَأْتِي سُبْحَانَهُ بِخَيْرِ غُرَرَاتِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ عِبَادَهُ
الْمُخْلِصِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِخَيْرَاتِهَا خَالِدِينَ
فِيهَا .

وَلَقَدْ لَئِلَ أَنْ يُسَال : أَلَيْسَتْ الْمَغْفِرَةُ تَقْتَضِي لَفْظًا ؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن النفس هواجس ؛ ولا يمكن أن تسلم النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّمَ الكثير من الأفعال على المسلم ؛ حماية للفرد وحماية للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع في الاستقرار الأمن .

فقد حَرَّمَ الحق سبحانه على المسلم السرقة والزنا وشرب الخمر ، وغيرها من الموبقات^(١) والخطايا ، والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض ، وما دام قد حَرَّمَ كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحَرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنب هذه الخطايا .

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ يفعل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألا يُورِّق نفسه بتلك الغفلات ؛ فسبحانه رءوف رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التي قد شَرَّفَ الله أهلها بنزول القرآن بها ، نجد أقسام الكلام إما شعراً أو نثراً ، والشعر له وزن وقافية ، وله نغم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصفات ، بل قد يكون مسجوعاً أو غير مسجوع .

وإن تكلمت بكلام نثري وجئت في وسطه ببيت من الشعر ، فالذي يسمعك يمكنه أن يلحظ هذا الفارق بين الشعر والنثر ، ولكن القرآن كلام ربٍّ قادر ؛ لذلك أنت تجد هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها وتقرؤها وكأنها بيت من الشعر فهي موزونة مقفاة :

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . رابطة : أمثلة . [لسان العرب - مادة : وبق] .

« نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بحر المجتث^(١) . ولكنها تأتي وسط آيات من قبلها ومن بعدها فلا تشعر بالفارق ، ولا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر ، ومن شعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعاني مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

وهكذا يكتمل النبا بالمفطرة لمن آمنوا ؛ والعذاب لمن كفروا . وكانوا من أهل الغواية . ونلاحظ أنه سبحانه لم يشدد في تأكيد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقت غضبه . مصداقاً لقوله ﷻ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة . فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب ؛ لم يأمن من النار »^(٢) .

ونلاحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قول الحق سبحانه :

(١) سمي هذا البحر بالمجتث ؛ لأنه مجتث أي مقطوع من بحر الخفيف بتقديم (مستقطع) على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزواً ، وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه . مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن انظر كتاب (في علم العروض والقافية) - ص ٥٠ أمين على السيد - طبعة دار المعارف ١٩٨٢ م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦١٦٩) ، وأخرج مسلم بغضه في صحيحه (٢٧٥٥) كتاب التوبة . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦)

[الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نُبِها إلى مَقَاسِ الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أن يجمع بينهما ، والأُ يُوْجَلُ العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصي : لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فُهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »^(١) .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية في الخفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسية واقعية توضح كل تلك الصفات . فيتكلم عن إبراهيم - عليه السلام - ويعطيه البشُرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، وينزل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١)

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقري^(٢) أو استئناس ، ويسمونه^(٣) « الْمُتَضَوِي » لأنه ينضوي إلى غيره لطلب القري ، ولطلب

(١) أخرجا مسلم في صحيحه (٢٧٥١) . والبخاري في صحيحه (٢١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي لفظ : « غلبت » .

(٢) قري الضيف قري وقراء : أضاف . واستقرأتى : طلب من القري . والقري : طعام الأضياف . [لسان العرب - مادة : قري] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧١٩

الأمّن . ومن معاني المتضوى أنه مال ناحية الضوء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرَقون بابهم ، ولكنهم يعلنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير في الطريق ليَهْتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائي للعبد الذي يخدمه :

أَوْقَدِ النَّسَارَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ^(١)
وَالرَّيْحُ يَا غُلَامُ رِيحٌ صَرٌّ^(٢)
إِنْ جَلِبْتَ لَنَا ضَيْفًا فَانْتَ حُرٌّ

وهكذا نعرف أصل كلمة انضوى . أى : تَبِعَ الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرَد يُطْلَق على المفرد والمثنى والجمع ، إنثاء أو ذكورا ، فيُقَال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهن .

وكلُّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضيفان » .

ولفتنّبه إلى أن الضيف إذا أُطْلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد

(١) القر : البرد . والقر : اليوم البارد . وكل بارد : قر . [لسان العرب - مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة لصوت العاصفة . [لسان العرب -

مادة : صرر] .